١٥٠ عاماً على ولادة محمد عبده

استعادة الأستاذ الإمام

ملف من إعداد: محمد جمال باروت (مراسل الآداب في سوريا)

يعيد الفكرُ العربيُّ، وهو يقف على مشارف الألفية الثالثة للميلاد، تقويمَ ما انجزه عبر ١٥٠ عاماً، تألّقتْ فيها الثقافةُ العربيةُ وبلغتْ معدّلاً عالياً وكثيفاً من معدّلات حيويتها التي لم يشهد تاريخُها مثلَه إلا في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلاديّ الذي يعتبره آدم متز بحقٍ قرنَ النهضة في التاريخ الفكريّ العربيّ - الإسلاميّ.

وتحتل الإصلاحيةُ الإسلاميةُ موقعاً استراتيجياً في مراجعات هذا الفكر وتاصيلِهِ لنفسه ورهاناته الاجتماعيةِ والسياسيةِ المركّبة، في عصرٍ «تعوْلَم» فيه العالَمُ، بقدْرِ ما انبعثتْ فيه الهوياتُ الثقافيةُ والحضاريةُ المتعددة والمختلفة. وتستحيل قراءةُ تلك الإصلاحية بمعزلٍ عن شخصيةٍ وإنتاجِ إمامها الأكبر الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥)، الذي عُرِفَ باسمٍ آخر مشعٍّ رمزياً هو «الأستاذ الإمام». وهو ما يفسّر كثافةَ الدراسات العربية والاستشراقية التي عُنيتْ بإنتاجه ورهاناته، ويشير الى انّ إصلاحية الأستاذ الإمام مازالت حاضرةً وراهنةً ما دمنا نستعيدها بكل هذا الجدل. وليس احتفاء الآداب، التي كانت دوماً فسحةَ حوارٍ وإطاراً لأفكار الاستنارة والتقدم، بمرور ١٥٠ عاماً على ولادة الأستاذ الإمام إلا مظهراً من مظاهر ذلك الاهتمام المركزيّ باكبر عمليةِ تحديثٍ قامت بها الإصلاحيةُ الإسلاميةُ في وعي الانتلجنسيا العربية المعاصرة خلال عصر النهضة العربية.

ويغطي الملفُّ الراهن بعضَ جوانب فحص تلك الإصلاحية، ويستانف أسئلتها بشكلٍ نقديٍّ كما تَبرز عبر الأستاذ الإمام؛ وهو ما ينطوي على فهمٍ آخر لمعنى الاستمرارية والتواصل والتفاعل في الثقافة العربية المعاصرة المنهمكة بتجذير أفكارها وتطلعاتها بقدر انهماكها باستيعاب الأسئلة الجديدة وإعادة طرحها. ومن هنا تتميز موادُّ هذا الملف بما تتميز به كلُّ استعادةٍ راهنةٍ لحقبةٍ ثقافيةٍ تبدو منجَزَةً ومستمرةَ الأسئلة في آن واحد: من نقدٍ ورهاناتٍ وتطلعاتٍ وأسئلةٍ مربكةٍ عن المصائر والمآلات، بقدر ما تسلّط بعضَ الأضواء على جانبٍ مهمٍّ في إنجاز الأستاذ الإمام بشكل خاصّ في حقل تجديد العقل «الأصوليّ» الإسلاميّ بمعناه الإبستمولوجيّ أو العلوميّ، ومحاولةِ تشغيل آلياته وتطويرها واستئنافها بشكلٍ مختلفٍ، في زمنٍ تبلّد فيه ذلك العقلُ وسيطر عليه التقليدُ التامّ. كما تَطْرح موادُّ هذا الملف أسئلةً مضادةً في منظور منهجية النقد الحضاريّ، وتحاول تقديمَ الأستاذ الإمام في أبعاده المتعددة كنموذجٍ للمثقف الإسلاميّ العصريّ في زمنه.

واخيراً فإنّ استعادتنا للأستاذ الإمام في الذكرى ١٥٠ لميلاده إنّما هي تحيةٌ لعقله النقديّ والمتسائل والمشوّق والشجاع، في مرحلةٍ تحتاج فيها ثقافتُنا إلى العقل النقديّ كله.

م.ج.ب